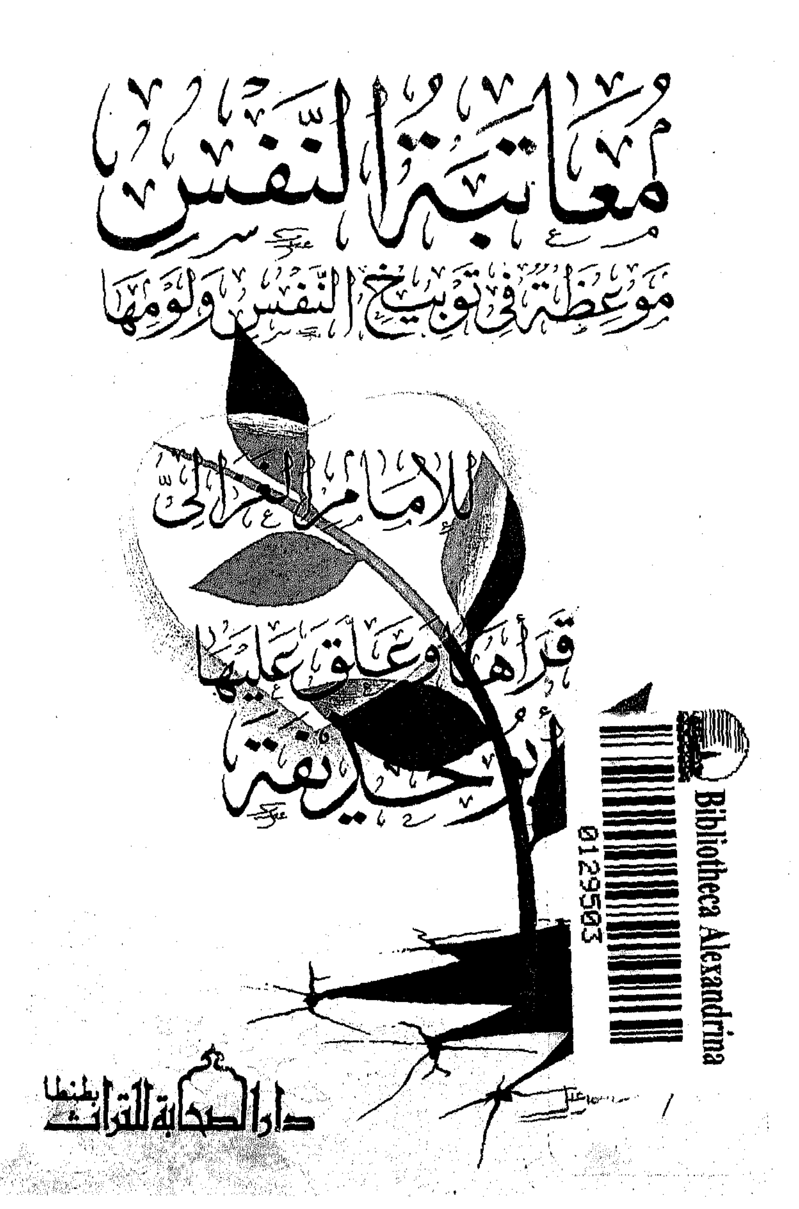
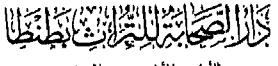

معاتبة النفس
موعظة في توبيخ النفس ولومها
للإمام الغزالي
قرأها وعلق عليها
أبو حذيفة
دار الصحابة للتراث بطنطا



# معاتبة النفس

## موعظة فى توبيخ النفس ولومها

للإمام الغزالى




للنشر - والتحقيق - والتوزيع
شارع المديرية - أمام محطة بنزين التعاون
ت: ٣٣١٠٨٧ ص.ب ٤٧٧

دار الصحابة للتراث بطنطا
الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م .
المراسلات / دار الصحابة للتراث بطنطا
ش المديرية بجوار محطة بنزين التعاون
ص ب / ٤٧٧ .
ت : ٣٣١٥٨٧

[ ٢ / معاتبة النفس / صحابة ]

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على رسوله الذى اصطفى ﷺ .

**أخى المسلم** : راقب نفسك ولاحظها فى أقوالها وأعمالها ، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب وزن عملك قبل أن يوزن عليك وراجعها حين تنحرف ، أو تهم بشىء من الانحراف لتعيدها إلى الصراط ، وتقيمها عليه ، وتلزمها به وتعاتبها إن سعت بطيئة إلى الخير . لتفجر بها ينابيع كوامن الخيروالبركة . وهكذا .

وبذلك تكون قد حاسبت نفسك ونصبت من نفسك قاضياً وحارساً يقظاً حذراً تمنعها من السوء وتدفعها إلى الطيب من القول والعمل .

**واعلم أخى الحبيب :**

أن لومك لنفسك ومحاسبتها لا تعنى مجرد المعاتبة واللوم فكن مثل التاجر الذى يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر فيه ، ثم يحاسبه .

فما بالك بتجارة رأس مالها المحاسبة وربحها الفردوس الأعلى ، فتدقيق الحساب مع النفس أهم بكثير من تدقيقه فى أرباح الدنيا .

**أخى :** ألا تجد نفسك تلوم وتقسو فى الحكم وتحصى على غيرك كل صغيرة وكبيرة خاصة إذا كنت مسؤلا ؟ فنفسك أولى أن تعاتبها وتُحصى عليها وتُؤدبها .

**أخى لاتَنْسَ** .

أن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها فكل يوم يمر لا يأتى مثله ، ما تكسبه اليوم رصيد لك غداً هاهو الإمام الغزالى يصحبنا ويقدم لنا الدواء لمعاتبة النفس .

**أبو حذيفة**

## بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم (١) أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرّارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر (٢) إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن ذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوّامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك قال تعالى ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ [ سورة الذاريات / ٥٥ ] وسبيله أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبداً تتعذر بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها :

---

(١) بداية نص كلام الغزالى من كتابه الإحياء [ ٤/ ٣٨٠ ] .

(٢) الغمر : الغلبة

« يا نفس ...

ما أعظم جهلك . تدعين الحكمة والذكاء والفطنة ، وأنت أشد الناس غباوة وحمقا .

أما تعرفين مابين يديك من الجنة والنار . وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب (١) .؟

فما لك تفرحين و تضحكين . وتشتغلين باللهو . وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ؟ . وعساك اليوم تختطفين أو غدا . فأراك ترين الموت بعيدا . ويراه الله قريبا .

أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت ؟ .

أما تعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتى فى شىء دون شىء ، ولا فى شتاء دون صيف ، ولا فى صيف دون شتاء ، ولا فى نهار دون ليل ، ولا فى ليل دون نهار ، ولا يأتى فى الصبا دون الشباب . ولا فى الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس

---

(١) لأن العمر محدود مهما طال فموعده قريب .

يمكن أن يكون فيه الموت فجأة . فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة . ثم يفضى إلى الموت .

فمالك لاتستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب . أما تتدبرين قوله تعالى ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم** ﴾ ؟ ... [ الأنبياء / ١ ]

**ويحك يا نفس** ! إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك ؛ فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك ؛ فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ! .

**ويحك يا نفس** ! . لو واجهك عبد من عبيدك . بل أخ من إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه . ومقتك له (١) ، فبأى جسارة (٢) تتعرضين لمقت الله وغضبه . وشديد عقابه ؟ . أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات . جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه . فاحتبسى ساعة فى الشمس . أو فى بيت الحمّام (٣) . أو قربى إصبعك من النار . ليتبين لك قدر طاقتك .

---

(١) وبغضك له .   (٢) شجاعة .   (٣) دورة المياه .

أم تغترين بكرم الله وفضله . واستغنائه عن طاعتك وعبادتك . فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك ؟ . فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ، ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم . فمالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ؟ .

فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز . أو يسخر عبدا من عبيده ، فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب ؟ .

أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا ، وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها . وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

**ويحك يا نفس !** . ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة . فإنك تدعين الإيمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك . ألم يقل لك سيدك ومولاك : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[ هود / ٦ ]وقال فى أمر الآخرة :

﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعي** ﴾ [ النجم / ٣٩ ] .

فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة ، وصرفك عن السعى فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين (١) على طلبها تكالب المدهوش المستهتر (٢) ، وكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر . ما هذا من علامات الإيمان .

لو كان الإيمان باللسان ، فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار ؟ !

**ويحك يا نفس !** . كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب . وتظن أنك إذا مت انفلت وتخلصت . هيهات (٣) . أتحسبين أنك تتركين سدى (٤) ؟ .

ألم تكونى نطفة من منى يمنى (٥) ثم كنت علقة فخلق فسوى ؟ ! ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ ؟ [ القيامة/ ٤٠ ] فإن كان هذا من إضمارك ، فما أكفرك

---

(١) من شدة الحرص على الدنيا .
(٢) المدهوش : الذى ذهب عقله ، والمستهتر : المولع بالشىء .
(٣) كلمة تقال : لما يصعب مناله .
(٤) بلا حساب ولا عقاب .
(٥) وهو ما يتكون منه الجنين .

وأجـهلك . أمـا تتـفكـرين أنه مماذا خلـقك ؟ . من نطفة خلـقك (١) فقدرك . ثم السبيل يسـرك . ثم أماتك فأقبرك . أفتكذبينه فى قوله : ثم إذا شاء أنشرك ؟ .

فإن لم تكونى مكذّبة فمـا لك لا تأخذين حذرك ؟ . ولو أن يهوديًا أخبرك فى ألذ أطعمـتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنه وتركـتـه ، وجـاهدت نفـسك فـيـه . أفكان قـول الأنبـيـاء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة ، أقل عندك تأثيراً من قول يهـودى يخبرك عن حدس (٢) وتخـمين وظن ، مع نقصان عقل وقصور علم ؟ !.

والعـجب أنه لو أخبـرك طفل بأن فى ثوبك عـقربًا لرمـيت ثوبك فى الحال ، من غيـر مطالبة له بدليل وبرهان ، أفكان قول الأنبيـاء والعلماء والحـكماء وكافـة الأولياء أقل عنـدك من قول صبى من جملة الأغبياء ؟ .

أم صـار حـر جـهنم ، وأغـلالهـا وأنكالهـا (٣) . وزقومـهـا ومقامـعها ، وصديدها وسمـومها ، وأفاعـيها وعقاربهـا ، أحقر

---

(١) ماء التناسل من الرجل والمرأة .        (٢) الظن والتخمين .

(٣) القيد الشديد

عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يومًا أو أقل منه ؟ .

ما هذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك !!

فإن كنت يا نفس ، قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ، فمالك تسوفين (١) العمل والموت لك بالمرصاد . ولعله يختطفك من غير مهلة . فبماذا أمنت استعجال الأجل ؟ وهبك أنت وعدت بالإمهال مائة سنة . أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة (٢) يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ .

إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك .

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلا بطالا (٣) ، يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما

---

(١) التسويف : تأجيل الشيء والمماطلة فيه .

(٢) العقبة : الطريق غير الممهد الوعر الخاص بالجبال فلا حياة فيه ولا مرعى .

(٣) فلا عمل له والبطال صاحب الباطل .

يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه ، اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى ! .

ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلى ، فلعل اليوم آخر عمرك ، فلم لا تشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ؟ .

هل له سبب إلا عجزك من مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ .

أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ .

هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه . فلا تكون الجنة قط إلا ومحفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا محال وجوده .

أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين :غدًا غدًا ؟ .

فقد جاء الغد وصار يومًا ، فكيف وجدته ؟ . أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يومًا كان له حكم الأمس . لا بل تعجزين عنه اليوم .، فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة

كالشجرة الراسخة التى تعبَّد العبد (١) بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهوشاب قوى . فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخًا ، ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا ، فما لا يقدر عليه فى الشباب لا يقدر عليه قط فى المشيب ، بل من العناء رياضة الهرم . ومن التعذيب تهذيب الذيب ، والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك .

فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ .

ولعلك تقولين : ما يمنعنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأقبح اعتذارك .

(١) وهو أن يؤجر العبد باقتلاعها ومأمور من الله بذلك

إن كنت صادقة فى ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد (١) ، ولا مطمع فى ذلك إلا فى الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها ، فرب أكلة تمنع أكلات .

وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ، ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضًا مزمنًا ، امتنع عليه شربه طوال العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة : أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ، أم يقضى شهوته فى الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة ف يوم ؟.

ميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل عذاب أهل النار . أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع

---

(١) تعنى الاستمرار الدائم طول الدهر .

العمر وإن طالت مدته .

وليت شعرى : ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة . أو ألم النار فى دركات (١) جهنم ؟ . فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟

ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمق جلى .

أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفات إلى مكره واستدراجه ، واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك فى جميع ذلك بجميع الحيل .

(١) فالدرجات لأهل الجنات وهى لا على والدركات لأهل النار وهى لأسفل .

وبهـذا الجهل تستحـقين لقب الحمـاقة من رسـول الله ﷺ حيث قال : « الكيس (١) من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » (٢) .

## ويحك يا نفس !

لا ينبغي أن تـغرك الحيـاة الدنيا ، ولا يغرنك بـالله الغرور ، فانظري لنفسك . فـما أمرك بمهم لغيرك ولا تضـيعي أوقاتك . فالأنفاس معدودة . فـإذا مضى منك نفس ، فقد ذهب بعضك . فاغـتنمي الصحة قـبل السقم . والفراغ قـبل الشغل . والغنى قبل الفقر . والشباب قبل الهرم . و الحياة قبل الموت . واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها .

---

(١) العاقل وإدانة النفس :اتهامها بالتقصير لتزداد من فعل الخيرات .

(٢) إسناده ضعيف : أخرجه الترمـذي (٢٤٦١) وأحمد ( ٤/١٢٤ ) والطبري في الكبير ( ٧/٣٣٨ ) والبيهقي ( ٣/٣٦٩ ) والبغوي في شـرح السـنة ( ١٤ /٣٠٩ ) من حـديث شـداد بن أوس –رضي الله – مرفوعًا .

**يا نفس** . أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته . فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه . حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك ؛ فإنه قادر على ذلك .

أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير (١) جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلا أن يكون هذا كذلك . أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة .

أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى . هيهات . كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة (٢) والنار ، وسائر الأسباب .

---

(١) الزمهرير : شدة البرد

(٢) بالجبة والنار : يلبس الثقيل والسملك من الثياب ليتقى بها من البرد وكذلك بالتدفئة .

فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات .وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن . ويسر لك أسبابه . لا فى أن يدفع عنك العذاب دون حصنه .

كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر . حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك . وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك . إذ خلقه سببا لاستراحتك . فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها: وإنما هى طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، والله غنى عن العالمين .

**ويحك يا نفس ! .**

انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . وكما بدأنا أول خلق نعيده ، وكما بدأكم تعودون . وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا.

**ويحك يا نفس ! .**

ما أراك إلا ألفت الدنيا . وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها

وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين فى نفسك مودتها . فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، أفما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ؟ .

أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمد نظره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته . أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ؟ .

أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك . وما لك فيها إلا مجاز (١) ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر ﷺ : « إن روح القدس (٢) نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ماشئت فإنك مجزى به . وعش ما شئت فإنك ميت » (٣) .

---

(١) أى عبور الطريق وقطعه

(٢) هو جبريل عليه السلام ونفث : أى أوحى فى نفسى .

(٣) إسناده ضعيف :

قال العراقى فى تعليقة على الإحياء (١/٨٨) رواه الشيرازى فى الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبرانى فى الأصغر والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف .

**ويحك يا نفس ! .**

أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى ؟ .

أو ماتنظرين إلى الذين مضوا : كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداء هم ؟ .

أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤملون مالا يدركون ؟.

يبنى كل واحد قصراً مرفوعًا إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض .

فهل فى الدنيا حمق وانتكاس (١) أعظم من هذا؟

يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعًا أما تستحين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟.

---

(١) وهل فى الدنيا إلا خيبة وخسران لمن لم يتخذ الإسلام منهجًا

واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء ، بعقل هؤلاء المنكبين (١) على الدنيا ، واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك ، إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ! ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجبًا لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ؟ .

ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد من على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك :

---

(١) غير المفارقين لها .

فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا (١) ؟.

فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى ؟ ! هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض . سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب . كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك (٢) ، بل أمر دارك ، فضلاً عن محلتك. ؟

فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها . وتنزهًا عن كثرة عنائها ، وتوقيا من سرعة فنائها ؟ . أم مالك لا تزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ . وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها ؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء ! .

فما أجهلك ، وأخس همتك و أسقط رأيك ، إذا رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، فى

(١) فليس لهم ذكر ولا سيرة والركز : الصوت الخفى .

(٢) المحلة : المنزل .

جوار رب العالمين ، أبد الآبدين ، لتكونى فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل ، فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ! .

**فبادرى ويحك يا نفس** . فقد أشرفت على الهلاك . واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ .

**ويحك يا نفس** ، مالك إلا أيام معدودة هى بضاعتك ، إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها ، لكنت مقصرة فى حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية ، وأصررت على عادتك ؟ .

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر (١) بين يديك ؟ .

أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا (٢) على أنفسهم كلهم بالإيمان المغلظة

(١) الفزع الأكبر : يوم النشور يوم البعث والعرض الأكبر

(٢) أقسموا وحلفوا .

أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم ؟ .

أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت في أمنيتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟ .

**ويحك يا نفس ! .**

أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم ؟ أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ، ويحك .

أهو أهون الناظرين عليك ؟. أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل ؟ تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ . أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة(١) وأن العذرة لا تطهر غيرها ،فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ؟ .

**ويحك يا نفس** ، قد جعلت نفسك حمارًا لإبليس ، يقودك إلى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا

(١) ما يخرج من دبر الإنسان .

تعجبين بعملك، وفيه من الآفات مالو نجوت منه رأسا برأس (١) لكان الربح فى يدك . وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة ، بعد أن عبده مائتى ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة ، مع كونه نبيه وصفيه .

**ويحك يا نفس** ، ما أغدرك . ويحك يا نفس ، ما أوقحك ، ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصى ! . ويحك كم تعقدين فتنقضين (٢) ، ويحك ، كم تعهدين فتغدرين .

**ويحك يا نفس** ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا : جمعوا كثيراً ، وبنو مشيداً (٣) وأملوا بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً .

**ويحك يا نفس** ، أمالك بهم عبرة ؟ أمالك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ . هيهات

---

(١) الكفتان متساويتان لا لك ولا عليك .

(٢) تؤكدين العهد والميثاق ثم لا تفين من ذلك .

(٣) عمارات شاهقة .

هيهات، ساء ما تتوهمين . ما أنت إلا فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فابنى على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك .

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى (١) ، أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه . وبشرى بالعذاب ؟ . فهل ينفعك حينئذ الندم . أو يقبل منك الحزن . أو يرحم منك البكاء ؟ .

والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟.

**ويحك يا نفس !** تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك ، فكم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه ، فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك ، فترين تحسرهم عند

(١) وهو كناية عن خروج الروح .

الموت ، ثم لا ترجعين عن جهالتك .

فاحذرى أيتها النفس المسكينة يومًا آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدًا أمره فى الدنيا ونهاه ، حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله ، سره وعلانيته . فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين أمام الله وبأى لسان تجيبين . وأعدى للسؤال جوابًا ، وللجواب صوابًا ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود .

اعملى قبل أن لا تعملى ، واخرجى من الدنيا اختيارًا خروج الأحرار ، قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار .

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا إعتبارًا ، وسعيك لها اضطرارًا (١) ورفضك لها اختيارًا ، وطلبك للآخرة

---

(١) أى يكون السعى قدر الحاجة والكفاف .

ابتدارًا (١) ، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى .

واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار ، فإنه يسار به وإن لم يسر .

---

(١) مسارعًا ومسابقا .

# العلاج

فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلى هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطنى نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، فكل ميسر لما خلق له .

فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك ، والقنو كبيرة من الكبائر ، نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء ، مع انسداد طريق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها ؟

وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ؟

فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة (١) ، فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء ، واستغيثي بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين ، وأدمني الاستغاثة ، ولا تملي طول الشكاية ، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقمت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل . فلا مذنب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجى إلا إلى مولاك فافزعي إليه بالتضرع ، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجح فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ،

---

(١) نزول الدمع : دليل على التأثر والرحمة

والمسئوول جواد ، والمستغاث به بر رؤوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض والعفو شامل .

وقولى : يا أرحم الراحمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا حليم ياعظيم يا كريم ، أنا المذنب المصر ، أنا الجرىء الذى لا أقلع ، أنا المتمادى الذى لا أستحى ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الغريق ، فعجِّل إغاثتي وفرجى ، وأرنى آثار رحمتك ، وأذقنى برد عفوك ومغفرتك ، وارزقنى قوة عصمتك ، يا أرحم الراحمين » اهـ .

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١



دار الصحابة للتراث
بطنطا
للنشر . والتحقيق . والتوزيع
ت: ٣٣١٥٨٧ _ ص.ب ٤٧٧
شارع المديرية
فاكس : ٠٤٠/٣٣٨٧٦٩